فى عيـــد المعرى (*)

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٢ —

ويوم الاثنين ثامن شوال سنة ١٣٦٣ من الهجرة ، اجتمعت وفود البلاد العربية فى جامعة دمشق ، واحتشد الناس ليشهدوا افتتاح المهرجان . وجلس الوفود على منصة عالية فى صدر المجلس ومعهم رئيس المجمع العلمى العربى وأعضاؤه — وهم الداعون إلى الاحتفال والقائمون عليه — وحانت ساعة الافتتاح فأقبل رئيس الجمهورية وجلس وسط الصف الأول من الوفود ومعه بعض الوزراء وكبراء الدولة .

أمة تمجد شاعراً من شعرائها ، وقد احتفلت لهذا واجتمعت له ، وشهد الاجتماع رئيس الدولة . ذلكم أمر أمم ، وخطب يسير لو وقف الفكر عند هذا المظهر المرئى ، وهذا الجمع الحاضر ؛ ولكن وراء هذا المرأى معان ومعان ؛ هذه الأمة العربية المجيدة قد عرفت نفسها ، وتبينت وحدتها ، فبعثت وفودها إلى دمشق لتجتمع على تمجيد شاعر من شعرائها . فالتقت فيها وجوه متعارفة لا تتناكر ، وقلوب متعاونة لا تتنافر ، وتحدثت عن الماضى والحاضر ، وطمحت إلى الآتى بآمال مجتمعة ، وعزائم مجمعة ، وقد اجتمعت فى الساعة نفسها وفودها فى الاسكندرية لتشرع لوحدتها شرعة ، وتخط لها منهاجا ، وتتحالف على الخطوب ، وتعد للحوادث ، وتلقى الزمان برأى جميع ، وأمر جامع . ولم يوافق إجتماع دمشق إجتماع الاسكندرية إلا إيذانا بيقظة هذه الأمة ، وطلبها المجد والكمال فى كل نواحيها ، وسلوكها كل سبيل إلى مقاصدها . وما رئيس الجمهورية هذا الجالس فى حفل المعرى إلا ربيب الثورات وغذى المحن فما نال مكان الرياسة من الجمهورية السورية إلا بأن العرب الثائرين تولوا أمورهم ، ونالوا مكانهم فى بلادهم ، وأن الثورة ظفرت ، والآمال تحققت ، وبدت بشائر الفجر الصادق للمستقبل الكريم . ولقد كان من مقاصدى يوم أزمعت شهود مهرجان المعرى أن أرى شكرى القوتلى وصحبه يصرفون الأمور فى حاضرة بنى أمية ، وأن أسعد نفسى برؤية ما تمنيت ، وشهود ما أملت . لقد أديل من الضعف للقوة ، ومن الذل للعزة ، ومن الفرقة للاجتماع . ولم يبق إلا أن تعتزم الأمة المجيدة وتقسم لتبلغن غايتها ، ولتنالن مُنيتها . وما أقسمت أمة وعزمت إلا أبرتها الحادثات ، وأمضى يمينها الزمان .

قلت فى نفسى ، والسرور يملؤها : قد احتفلنا من قبل بذكرى أبى الطيب المتنبىء فتجاوبت بلاد العرب بتمجيد الشاعر الكبير ما بين هضبة إيران وبحر الظلمات ، وكتبت مقالات وألفت كتب تناولت سيرته وأدبه . وتبين من يحتاج إلى بيان أن فى هذه الأقطار الواسعة أمةً واحدة ، تنطق بلسان واحد ، وتروى عن تاريخ واحد ، وتتأهب لتأليف تاريخ هو على ضخامته واختلاف فصوله ، كتاب واحد .

ثم يدعى إلى الاحتفال بذكرى المعرى والحرب دائرة ، والخطوب محيطة ، والأسباب بين البلاد متقطعة فتصيب الدعوة هوى من أمة نزاعة إلى إحياء مجدها وحفظ تاريخها القديم وتسطير تاريخ جديد أعظم وأروع . وكانت دمشق مكان الجمعين وما أجمل أن يحيا أدب العرب ، ويذكر مجد العرب فى مدينة العرب : دمشق الخالدة .

وقد اجتمعت الوفود على ذكر الشاعر الفيلسوف الحزين المتشائم ، وهى فرحة مستبشرة ، ترى تباشير الصباح فى أعقاب الظلام ، وتكاد ترى أشعة الشمس من وراء الأفق ، ويعرف بعضهم فى وجوه بعض بسمة الأمل ونضرة الرجاء ، وقوة العزم وأهبة الجهاد الذى لا ينتهى دون الظفر .

احتفلنا بذكرى أبى العلاء يومين فى دمشق تلقى المحاضرات فى العشى ، وللزيارات والمآدب سائر النهار وزلف من الليل .

ويوم الاربعاء عاشر شوال والساعة تسع ونصف من الصباح فصلت الوفود ومن معها من أدباء الشام وعلمائه تسير صوب الشمال . فتوالت السيارات على الطريق تخترق الغوطة الفيحاء

(*) انظر العدد ٦٥٩ من الرسالة .

الغناء وليست الغوطة إحدى جنات الدنيا ، فى حاجة إلى تعريف أو وصف ، وامتد بنا السير فيها زهاء نصف ساعة . ومررنا بقرية حَرَسْتا من قراها فذكرنا الإمام محمد بن الحسن الشيبانى الفقيه صاحب الإمام أبى حنيفة . ويقال إنه ولد بهذه القرية . وقال ياقوت فى معجم البلدان فى صفتها : « قرية كبيرة عامرة فى وسط بساتين دمشق ، على طريق حمص بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ . » وعد يقوت جماعة من العلماء المنسوبين اليها . ثم قال : « وحَرَسْتا المنظرة من قرى دمشق أيضا بالغوطة فى شرقيها » . وجُزنا الغوطة إلى أرض واسعة فيها كروم ومررنا بالثنايا . ويقال إن هناك ثنيّة العُقاب التى ركز عليها خالد بن الوليد رضى الله عنه راية العقاب حينما اجتاز بادية الشام وفجىء الروم من حيث أمنوا . وبعد قليل رأينا طريق بغداد يتفرع من طريقنا . وحسب هذا الطريق يمتنا ونحن نعلم أنه يصل بين دمشق وبغداد . وقد سعدت بقطعه عشر مرات . فلم توحشنى قفاره ، ولم يعنى طوله ؛ بل أنست فيه بذكريات عظام ، وتحدثت فيه إلى أمال جسام .

وبعد قليل رأينا طريق تدمر ينشعب إلى يمين طريقنا ، ثم دخلنا أرضا جبلية يسير الطريق فيها على سفوح الآكام وحفاف الأودية ، ثم انفرجت الجبال واتسع السهل والساعة إحدى عشرة وبلغنا النبك بعد ربع ساعة ، وهى فى سهل واسع خصب ، تلوح فى نواحيه قرى قليلة متباعدة وضياع وأشجار . والعمران والخصب ظاهران فى البلدة وحولها . وكذلك كانت فى القرن السابع . قال ياقوت : « قرية مليحة بذات الذخائر بين حمص ودمشق فيها عين عجيبة باردة فى الصيف صافية طيبة عذبة يقولون مخرجها من يرور » . ويرور هذه بين حمص وبعلبك وهى إلى الجنوب الغربى من النبك . والنبك مركز قضاء يسمى باسمها . ويستخرج فى نواحيها عرق السوس . وقد نزلنا على مجرى هذه العين ، فى بستان صغير فيه ناعورة . فاسترحنا واستروحنا إلى البستان والماء والناعورة واحتف بنا موظفو البلدة ونائبها وأعيانها . واستأنفنا السير بعد قليل نؤم حمص فمررنا بدير عطية ورأينا على بعد إلى يسارنا قرية القارة . وهى قرية قديمة معروفة . قال صاحب معجم البلدان : « قرية كبيرة على قارعة الطريق . وهى المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق . وكانت آخر حدود حمص وما عداها من أعمال دمشق . وهى على رأس قارة وبها عيون جارية يزرعون عليها » والظاهر أن الأرض هناك كثيرة العيون وبهذه العيون تحيا الأرض هناك وتخصب وينبت الزرع والشجر وينشأ العمران . وكان معنا الأستاذ أديب التقى فقال : العامة يقولون : بين القارة والنبك بنات الملوك تبكى ؛ قلت : لم تبكى ؟ قال والعهدة عليه : من شدة البرد .

أخذ السهل يتسع حتى اختفت الجبال التى كانت تلوح بعيدة على يمين الطريق وابتعدت الجبال التى على يساره ، وأشير إلى سواد بعيد يبدو فيه الشجر والخضرة فقيل : انه متبع العاصى ، وشرعنا نرى آثار الخصب والنضرة فى سقى العاصى . والعاصى اكبر أنهار سوريا ينبع شمالى بعلبك ويجرى صوب الشمال حتى يخترق بحيرة حمص ويمر بمدينة حماة . ثم يتجه صوب الشمال والغرب حتى يفيض فى البحر . وكم يفيض بحراه الخصب والبركة وينبت الزرع والجنات ، وينضر البساتين والمتنزهات ويدر النواعير الكبيرة الرائعة .

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزام

الشـــوامخ

الجزء الأول : امرؤ القيس

الجزء الثانى : خصائص الشعر الجاهلى وأغراضه

درس وتحليل

بقلم

الدكتور محمد صبرى

أول كتاب يبرز عبقريه الشعر الجاهلى وزعمائه بأسلوب جديد يستند إلى التحليل المقارن بأدب الإفرنج يطلب من المكاتب الشهيرة وثمن الجزء الواحد ٣٠ قرشا